# أرض الواقع

# "مفتاح الأسطورة"

## محمد رأفت الشملول

في أرض ..غير الأرض وزمان ..غير الزمان، ترى الليل الصموت الذي لن تبصره إلا في كوابيسك والوحشة التي لن تبصرها إلا إن كنت الوحيد على الأرض، ترى بين طيات السحاب ألاف الحكايا تروى وتزرع على الأرض من تلك المباني العريضة العجيبة والبقع المضيئة التي تنبئك بأن هناك حركة دائمة بين تلك الأرض وأراضي أخرى لا يمكن البصر- تحديد ملامحها؛ وأبراج عالية تحتوى على نوافذ كبيرة من الجانبين، تسمع بين ثكناتها ذلك الزئير المجنح الذي ينبئ باستعداد التنانين للتحليق وعلى ظهرها مالكيها، ولكن في ذلك الوقت من الليل لن يخرج أحد لخلودهم للراحة بعد نهار طويل وحملات تفتيشية كبيرة من رجال اللهب المجنح ذو التنانين المدرعة والقلوب الصلدة، لن تلمح الأن أحدا على الطرقات سوى أولئك السكارى الهائمين على وجوههم، أولئك العمال الفقراء، عمال أرض (تبراينون) تلك المدينة المجهولة الخالية من الجريمة، المليئة بالذهب من الطبقات الغنية مالكي التنانين والنحاسيين من أولئك الفقراء المحبطين السكارى بين يوم طويل من العمل في تشييد الأبراج والمباني، وبين الغرق في الحزن لفقدهم عزيزا من حبيب أو رفيق أو زوج أو ابن لاقترافهم الجرم الوحيد والإثم الكفيل بجعل تبراينون كالهشيم تذروه الرياح ذلك الدنس الذي يعكر صفو تلك المدينة الخالية من الأثام المليئة بالهدوء؛ جريمة..... الخيال!!!!

**********

وفي كل ذلك الخلط وبين تلك الدموع والضحكات السكيرية لا ترى في السماء إلا هو بتنينه عظيم الأجنحة، لامع الدروع من لمعانه

تظنه شـــهابا في الســـماء، ولكنه لم يكن إلا تنين من اللهب المجنح وعليه سبيل بن شريال قائد رجال اللهب.

المجنح ذلك الشـــاب عريض المنكبين أزرق العنين حليق الوجه، يبصر ـ تلك المدينة العريقة التي أنشـاها والده الملك شريال وشـملها بقيمه و واقعيته التي جعلت الجميع كعقارب الســـاعة لا يتوقفون عن العمل والعمل فقط لا يمكنهم ذلك الا بالمســـاء وقد غرقوا في الملذات من شهوات لطلب الراحة أو تضميد الجروح والأحزان يرى ذلك الشاب - شـديد النهم للمطالعة قوى البنيان والبيان - كل ذلك الفقر والمعاناة والدموع المخبئة بالليل خوفا منه ومن رجاله بعد أن يفقدهم أحبائهم، أولئك السائرون الفقراء مالكي بوابات الشعلة، تلك البقع التي يراها من سـمائه على ظهر تنينه يعرف منها أن هناك من يريد الهرب بنفســه، ولكن يفشــل في ذلك عند انطفاء الشــعلة لعجزه حتى عن التفكير أو رســـم المكان في مخيلته..... مخيلته... خياله... خيال... تلك الكلمات لم يعرف لها معنى منذ أســـبوعين، قبل ذلك الحلم الذي صـــار رفيقه، الذي أجبره على التعرف على ذلـك الجرم والغوص فيـه ومـا كـان من ذلـك المفتـاح - الطويـل المنقوش كزهرة الأوركيد- المعلق على بوابة قصر ـ أبيه الملك الاتي في منامه كل يوم إلا مغرقه في براثن من الشـــك والحزن والعذاب الذي يكون خلاصه الموت!!!!!

**********

"الخيال.... أهو جريمة حقا؟! لم يخاف منه ذوي التنانين؟ ويلجأ له أصحاب الشعلة والأمل الضائع؟ كيف سيهدد تبراينون ويدمرها؟

أأســـطورة حقا أنه يبني أمما... يحقق الأماني... وينتشـــل المرء من حياة خالية من أي سـبيل للتقدم، أم هو كما علمونا في المدارس وفي الجيش بأنه شـيطان على الأرض يبيح سـفك الدماء ويرى الوضـاعة نبلا..... لا أعرف..... لا أعرف....." خواطر زعزعت إيمانه وغايته التي يعيش من أجلها وأيقظت تلك الذكرى التي بذرت الشـــك في قلبه منذ ذلك الحين وكان بطلها هو شريال - والده -.....

كان في الثانية عشرـ من عمره وكان أباه مهتما بحضـوره المحاكمات التي تحقق في شـأن مرتكبي الإثم والحالمين مسـتخدمي تلك القوى الغامضـة المسـماة الخيال، ثبت حينها أمر المتهم وكان هو عائلته معا مرتكبي لذلك الاثم، وكان عزيزا ذو كبرياء ليس للندم مكانا عنده وذلك أثار الدهشـة في سـبيل الصـغير لإيمانه بأن ذلك خطأ عظيم عقوبتـه الموت، ومـا كـان من شريـال إلا محـاولـة تخويفـه حتى يســتجدي عطفه فما كان من ذلك المتهم إلا كلمة واحدة " أأطلب العطف من سائله؟!!" عندها رأى سـبيل الصـغير الشرـر يتطاير من عيناي والده، وصـار صـوته آت من أعمق حفر الجحيم وهدده بأن يكون مصابه فيمن يحب وسيذوقون أمامه أمر العذاب إذا لم يتخل عن الخيال وكانت نذير الجحيم خارج من فم ذلك الرجل.

"أبدا...."

عندها رأي سبيل شيطان متجسد بصورة أبيه حيث اشتعلت عيناه بشرر حقيقي وصرخة هادرة انشقت لها الجدران، وخرجت من يديه النار نار لم يراها سـبيل إلا في كتب الأسـاطير، نيران ملكية لا يملكها ســوى ملك تبراينون..، كانت امرأة تشـــبه تلك الزهرة النادرة، زهرة

أوركيدا بجمالها وتناسقها ونظرتها الناعسة الوقورة، تضم ابنتها الصغيرة في وجل لا خوف على حياتها هي بل على حياة ابنتها وفي وسط ذلك الرعب الذي أصاب سبيل نفسه، كانت تطمئنها وتسري عنها حتى ..... أصبحوا رماد!!!!!

لم تخرج من الرجل سوى دمعة لا تحكى عن ألم الفراق فقط، بل ألم القهر واستجداء الثبات ولكن لم يرى شريال ذلك بل هجم عليه وطوحه بذراعيه فجعله في فضاء تلك القاعة، ولم ينفك حتى نزل على الأرض وتلقى الضربات من ذلك السيف الأحمر الكبير ضربات لا تميت بل تعذب ثم تميت...

كانت الدماء في كل مكان وأصبح شريال في قمة النشوة وظفرت روح هذا المسكين بالخلاص من شيطان الأرض، هذا الذي سبح في دمائه ولم تخرج من سبيل سوى دمعه... دمعه جعل يديه تطوحها في الريح وهو على ظهر تنينه، وأستطرد محاولا التفكير في شان أخر أو شيء مضحك أو يتأمل أي موطن من مواطن الجمال، ولكنه أكتشف أنها هربت من لمعان درعه ودرع تنينه منذ زمن....

****

انتزعه من تلك الأفكار والخواطر ذلك الزئير المميز للهب المجنح، أمر غريب...! من المفترض ألا يكون غيره الليلة كيف ذلك الأمر...؟ وإذا به يسمع زئيرا آخر فيدرك أنه ليس واحد ووجب عليه أن يرى ماذا هناك...؟

مضى سبيل في طريقه للهبوط وإذا به يجد أمامه رجلا رث الهيئة، نحيف الجسد يركض بخوف وهلع من فرسا اللهب المجنح

الراكضـان وراءه في إصرار غريب، ويطلقون نيران تنانينهم عليه حتى حاصرته النيران وكان بين شقي الرحى...

"إنها نهايتك الأن أيها الرعديد...!"

"سلم ما معك ونعدك أن نقتلك بسرعة"

كان عليه التدخل فلقد اكتفى من ذلك الأمر، لأن رجاله تقتل القلوب والأن تأخذ الأرواح هذا كثير، دخل بسرعة البرق وجناحي شهاب _ تنينه_ قاتلة تلك النيران وحاجز بين ذلك المسكين والفارسان المجهولان وبلمعان شهاب أغشى بصر الفارسين وسقطوا من تنانينهما حتى طارت وبعدت عنهما مما أكد له أنهما ليسا من رجال اللهب المجنح ولكن سألهما:

_من أنتما؟!!

وبعد أن عاد إليهما البصر والاتزان ردوا:

_نحن من رجال اللهب المجنح من أنت؟

_كيف تكونان من رجالي ولا تعرفانني؟ أنا سبيل بن شربال من أنتما وماذا تريدان من ذلك المسكين؟

انحنيا فجأة في هول قائلين:

_نعتذر يا سيدي ولكن أمور صارمة بإعدام هذا المجرم بمجرد العثور عليه.

فقال سبيل بدهشه:

_لم؟!! ما جريمته؟

فقال أحدهما بآليه:

_التحريض على الخيال.

وعند قول ذلك أشهر كلاهما السيوف البيضاء المميزة لرجال اللهب المجنح بمجرد أن رأوا ذلك الرجل يركض.

_"أثبتا مكانكما... دعوه"

قالها سـبيل بلهجة آمرة اعتاد عليها ولكن لم يلقى الإجابة المعتاد عليها عندما يصدر أمرا واستشعر العصيان.... عصيان أمر عسكري ..! هي سـابقة في تبرانيون وذلك يوحي بخطورة الآمر ونفوذه وعاد قائلا:

_قلت دعوه.

_لا نستطيع لدينا أوامر صارمة بقتله.

وقفز أحدهما قفزة عالية حتى صـار عنده فأمسـكه وطار به إلى حيث سـبيل وزميله ورمى ذلك المسـكين في المنتصـف بين سـبيل وبينهما وبدأ كلاهما بالتحفز لإعمال السـيف به فأسـتوقفهما سـبيل محذرا بسيفه وصاح:

_ابتعدا عنه... ووقف حائلا بينهم.

فقالا:

_سـيدي لا نود الالتحام معك، أوامرنا تقتضيـ بأن ندمر أي عائق يحول بيننا وبين مهمتنا

_ من آمركما

_الملك شريال

عندها... انتفضت شكوكه واستيقظ غضبه وكانت صورة ذلك الرجل الممزق أمام عينيه عندها غضب... حزن... فأصر:

_لن تقتلاه

_إذا أنت عدو

وهما كليهما بالانتقاض على سبيل الذي بدوره تمركز في موقعه، وفي منتهى السرعة صارا رمادا بعد أن أعمل بها سيفه الأبيض المصنوع خصيصا له...

****

بعد تلك المعركة وتلك المشاعر المختلطة بين الحزن والحيرة وخيبة الأمل، أبصر ذلك الرجل الهزيل صاحب العباءة المرقعة واللحية الرثة كهيئته، اقترب منه لينهضه لكن لا يدري لم تفوح منه رائحة غريبة جدا رائحة تبدو مألوفة....

مد إليه يده، كان الرجل في بادئ الأمر مرتعبا منه لكنه في نهاية الأمر استكان له ونهض معه، وما أن نهض حتى لمح سبيل شيئا متدلى من عنقه، شيء يفوح منه رائحة الأوركيد.....

_ "إنه المفتاح.....!"

صاح بها سبيل بعد أن رأى المفتاح الذي يزوره في أحلامه، وقلب موازين قلبه وعقله رأسا على عقب ولكن سرعان ما استعاد رابطة جأشه وقال:

_ما اسمك؟ وماذا تعمل؟

_اسمي صابر واعمل حدادا

لم يستطع إكمال الكلام وظل يحملق بالمفتاح بشكل متلهف وشعور مجهول، حتى شرد عن صابر الحداد فترة قاطعها صابر بصوت رزين باسما:

_يأتيك في أحلامك أليس كذلك؟

_ماذا....؟!! كيف.... كيف عرفت؟

_أمر بسيط... لأنك المختار على أن أسلمك هذا المفتاح واتمم رسالة عائلتي.

_رسالة عائلتك؟!!!!

_نعم فمنذ الأزل وعائلتنا تحمل ذلك المفتاح العجيب وتحميه وتنتظر ذلك المختار الذي ينقذ الناس من بطش الخواء وظلام العقل.

_إذا أنا.....

_نعم أنت المختار أنت من ستبعث الأسطورة للحياة مرة أخرى بعد أن قتلت من ألاف السنين

_أي أسطورة؟!!

_الخيال...

واستطرد قائلا:

_الخيال ليس أثما وإنما العقل الذي يستخدمه يمكن أن يصبح الصالح والطالح، يمكن أن يزيده نبلا أو يأخذ خياله إلا أحقر درجات الوضاعة...

كان يهم سبيل بقول شيء إلا أن صابر قام بمقاطعته:

_سبيل..... شكوكك صحيحة.... لا يوجد أحد على الأرض له حق الاختيار إلا الإنسان وليس.... ملك تبرانيون.

_حتى لو الأمان موجود

_الإنسان بيده مفتاح الجنة ومفتاح الجحيم.....

وأعطاه المفتاح وسط نظرات سبيل المندهشة الملتهمة لكل تفصيل من تفاصيل المفتاح، وعندما تذكر صابر نظر لجهته بعد ثانية من إعطاءه المفتاح فلم يجده وكأنه تبخر في الهواء....

**********

في قصر شريال تجد شريال في قاعة الحكم على عرشه المهيب شديد الصلابة والقوة، تراه تظن أن شريال يجلس وحوله هالة من النيران المتأججة، وهي الأن نيران القلق تنهش داخله، فلقد كان ينتظر خبر موت حامل مفتاح أوركيدا، مفتاح الأسطورة التي تهدد عرشه وكل ما بناه في حياته، تراه بيده المليئة بالعروق يداعب لحيته البيضاء في قلق وهو يفكر إذا وقع المفتاح في يد المختار سيحي الخيال من جديد..

الخيال تلك القوى المجهولة التي دائما يهلع منها ويرتعد، ومنذ أن توطأت قدماه في الحكم وهو موقن بأنها مدمرته وسالبة عرشه، لذا

وجب عليه القتل والتعذيب لكل من تسـول له نفسـه تدمير ما بنى وجمع حتى صـــارت تبرانيون رمزا للجد والواقع الفعال، لأن ذلك المرض ابتعد فالجريمة انعدمت وزاد الجاه والســـلطان نعم... نعم تبرانيون صارت جنة، الأمر يستحق فعلا يستحق.

هذا ما يفكر فيه شربال دائما ليقنع نفسه كل ليله أنه نبيل وصاحب غاية مقدســـة، فتبرر الوســـيلة وحدها ولكن في هذه اللحظة دخل ســـبيل عليه منتزعه من أفكاره، جاذبا لبه بتلك الرائحة التي أوقفته فاغرا فاه..

_"أوركيدا.....!"

قالها شربال بخوف الدنيا والتي على إثرها اظهر ســـبيل المفتاح المعلق على رقبتـه مع نظره لوالـده، تحمل الكثير والكثير من الألم والعزم.

قطع ذلك الصمت شربال قائلا:

_بالطبع تعرف ما هذا فأنا لن أكذب، هذا مفتاح لدمارنا.

ابتسم سبيل بتهكم: بل دمارك أنت وخلاص شعبك.

_لم.. لم بني نقف متقابلين؟

_لأني اطلعت فعرفت فصرـت مســـئولا عن وضـــع البداية وجعل الناس تختار.

_تختار... تختار، إذا وضعت لهم ذلك سيدمرون العالم ولن يبنوه، يجب ألا يحلموا حتى تتساوى الرؤوس وتصبح السيطرة والقوة في يد حكيمة تستطيع توجيههم إلى البناء لا الهدم.

رد سبيل بهدوء: وتوجيه تلك اليد بالقتل والتعذيب.

صاح شربال:

_بأي طريقة متاحة تحمي ما بني وأنجز.

_أبي أرجوك لا تقف في طريقي على أن أفعل الصواب؟

_صـــواب... صـــواب، تقف في مواجهة والدك وتقول صـــواب، أنا الصـــواب وكلهم الخطأ حتى من أعطاك المفتاح أيضـــا خطأ، أنا الصـواب أن السـيد هنا ولا أحد سـواي لا أحد، أملك كل البشر ـ لأنه بأحلامه لا شيء وهم بي كل شيء أتفهمني.....؟

_أبي ابتعد عن العرش رجاء الباب وراءه وســـبيل أحياء الأســـطورة فتحه.

_لا لن افعل؟

عندها حرك ســـبيل يده بالهواء فأخرج من درعه مجموعة من الحبال الغريبة وأحط بها والده وربطه من أطرافه الأربعة، وبحركة من يديه صـار عند مدخل القاعة وبقفزة عالية في الهواء قام سـبيل بضربـة قوية بســـيفه على العرش فانقســـم نصـــفين، وظهر الباب المنقوش عليه كأغصـان الاشـجار ولا يحوي مقبض بل على مدخل المفتاح الذي دفنه الغبار منذ أمد بعيد.

_"ياحراااااااااس....!"

صـــيحة مدوية من شربال على إثرها أتى كل رجال القصر ـــ لحماية الملك وتكتل الحرس بتنظيماتهم واســـتعدوا لتلقى أوامر ملكهم،

الذي صـاح بهم بعد أن حل رجال القصر_ وثاقه بكل غضـب الدنيا قائلا:

_أقتلوه.

عندها وقف سبيل على السلم المؤدي لقاعدة العرش شاهرا سيفه الأبيض المميز نحوهم، صائحا بهدير كالأموج:

_تعلمون أن لا قبل لكم بي فأني أقواكم وإن التحمنا سـتكون مجزرة لن تحمد عقباها.

سـكن الحرس ووجلوا كونهم يعرفون من سـبيل وما الذي هو قادر على فعله؟ وعندما أولاهم ظهره واقترب من الباب، حاول أحدهم الانقضـاض عليه ولكنه بحركة من يديه تحركت حباله ودفعته إلى زملائه، فسقطت كتبة من الحرس بشكل يثير الدهشة وصاح سبيل ب (شـهابدر) فظهر شـهاب من العدم بجناحيه الكبيرين ونظراته القوية التي ألقت الرعب في قلب شريال نفسـه، طار نحو البدر وكان الجميع يعلم ما معنى ذلك، معناه أن منع سبيل من أتم مهمته صار دربا من الخيال...

**********

اندمج شهاب مع البدر وصار شعاعه هيكلا أزرقا سميكا أسدل بين مدخل قاعة الحكم ومكان العرش، وسـبيل يتأمل الباب وينحت تفصـيله ومعه المفتاح يسـتعد أن يدخله ليفتح الباب واقترب كثيرا من.....

_"ســبيييييل أتظن أن ذلك ســيجدي نفعا، مهما فعلت ســيحتاج الإنســان لمن يختار له ويعنفه ويرشــده هذه طبيعة البشر، بحثك عن المجد لن يجعل مأربك نبيلا بل ستكون وضيعا منبوذا، أهذا ما تريده وأنت سيد قومك"

قالها شربال وهو يلهث من الغضــب، وكان يعرف أن كلامه ســيجد موطأ عند ابنه، حيث تردد وصار يفكر من جديد حتى تمتم قائلا:

_اللعنة!!

ولكن سرعان ما جمع شــتات نفســه وقال: الإنســان ســيد قراره واختياراته تنبع من قناعاته وهذه مســؤوليتنا أن نعرفه ونعطيه هذا الحق لا أن نسلبه منه.

رد شربال:

_وهل تظن أن هذا هو الصـالح للإنسـان؟ أن يحي والخيال فيه وفي عواطفه وعقله؟ أفكرت لحظة أهذا صــواب أم لا؟ أهذا ما يريده الإنسان بني أم ستدفن في مقبرة التاريخ أجبني!!!!

**********

يد مرتعشة، نبضات قوية تزداد، وعقل مشتت، وعادت التساؤلات:

_"أما أفعله صـحيح؟ إني أعادي العالمين، كيف أضـمن أن ذلك في صــالح الإنســان وليس في هلاكه؟ هل... هل أنا فعلا أفعل ذلك لنفسي؟ ليقال علي منقذ الأسـطورة، أهناك أسـطورة فعلا أم ذاك مجرد أكذوبة؟!!! "

تعددت التساؤلات وصار خاطر سبيل معلاق في تلك المنطقة التي ليست قرار وليست سؤال، ويده مازال بها المفتاح، وشريال وحرسه ينتظرون ويصيح شريال:

_هاااه ماذا ستفعل بني؟

ماذا سيفعل فعلا؟ أسيفتح الباب ويتوغل في مستقبل مجهول لا ضامن فيه لشيء، أم يرضى بالواقع الذي يخسر فيه كل يوم جزء من روحه ويزداد منزلة في قومه؟

"ما قيمة الحياة دون مخاطرة؟ وما فائدة الأمان إن لم يسبقه خطر؟ علي أن افتح الباب واتحمل النتيجة بخطئها وصوابها ولكن... ما ذنب طالبي الخلاص؟ أيكون في ذلك خلاصهم أم عذاب جديد وفقد جديد؟ علي أن أقرر لا لحياتي بل لحياتهم لأن ليست كل الأرواح مستعدة للمخاطرة و الأن ليس وقت التفكير ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟....."

**تمت بحمد الله**